

الحداثة الشعرية 01

يعتبر مصطلح الحداثة بصفة عامة والحداثة الشعرية بصفة خاصة من أكثر المفاهيم التي لاقت تساؤلات كثيرة ومحاولات عديدة قصد ضبط ماهيتها وتحديداتها؛ وذلك لزبئية المصطلح وحركيته التي تجعله يتغير بتغير النقاد واتجاهاتهم ومذاهبهم الفكرية وهو ما أحدث جدلا عند العالم برمته وبشقيه العربي والغربي، وفي هذه المحاضرة سنحاول التطرق إلى مصطلح الحداثة ومفهومها، ثم التطرق إلى حدود المصطلح في البيئة الغربية والعربية وأهم الأعلام الذين أشاروا إليه. لتكون المحاضرة اللاحقة حديثا عن الحداثة الشعرية وأهم ما قيل فيها وأهم مرتكزاتها.

1- في مفهوم الحداثة:

إن مصطلح الحداثة هو من أكثر المصطلحات خلقا للاختلاف؛ وذلك راجع إلى عد تحدّد معناه بدقة فكما يقول محمد خضر عريف في معرض حديثه عن هذه القضية « هناك خلط بين مصطلح الحداثة (modernism) والمعاصرة (modernity) والتحديث (modernization)، وجميع تلك المصطلحات كثيرا ما تترجم إلى الحداثة على الرغم من اختلافها شكلا ومضمونا وفلسفة «، وعليه يكون الاستقبال العربي فيه نوع من اللبس لأن كل مصطلح يحيل إلى اتجاه مختلف عن الآخر؛ فالمصطلح الأول modernism لا يرتبط باتجاه أدبي بحث ولا يرتبط بالجانب الإبداعي، وإنما يدعو إلى شق عصا الطاعة والتمرد على الواقع بجوانبه المختلفة. أما المصطلحين الآخرين فهما أقرب إلى معنى المعاصرة والتجديد إذا ما جمعا مع بعضهما البعض.

يعتبر مصطلح الحداثة وإن صعب تحديد بمفهومه بدقة، الضوء المسلط على كل ما هو جديد ومستحدث إذ يمثل في النهاية « ثورة على التقليد ورهانا على التجريد والتجريب والتجديد «؛ لأجل التحرر من قيود كل ما هو نمطي والسير قدما نحو رؤية فلسفية وثقافية جديدة. ولعل الشيء الأكيد هو أن مصطلح الحداثة حتى وإن تغير بتغير الاتجاه الذي ينتمي إليه دعائه، يبقى الثابت فيه هو الثورة على الواقع بكل حدوده سواء السياسية أو الدينية العقائدية والاجتماعية، وطبعا الجانب الأدبي والفني؛ ذلك أن الحداثة تعد وتعتبر طريقة في التفكير وهو الأمر الذي جعلها تنفي فكرة الاحتكار والانتماء لمجال دون الآخر وهو ما ذهب إليه جان بودريار حين اعتبر الحداثة تنفي عن نفسها أن تكون « مفهوما سوسيولوجيا أو مفهوما سياسيا أو مفهوما تاريخيا يحصر المعنى، وإنما هي صيغة مميزة للحضارة تعارض صيغة التقليد» وتتعدى هذا وذاك إلى تخصصات أخرى. وبذلك يكون هم الحداثة التغيير والتجديد والاستمرار الذي يجعلها تتحرر من كل ما يحصرها ويقيدتها ضمن إطار محدد.

يتفق أغلب المهتمين بالحدث على أن كلمة modernité ظهرت لأول مرة في القرن 19 ولكن يبقى الاختلاف حول أول من استعملها، ويقال بأن بلزاك هو أول مستخدم لها سنة 1823م، بينما كانت هناك آراء أخرى تقول بأن فرانسوا شاتوبريان أول من استخدم المصطلح وأول من استعمل كلمة الحدث عام 1849م، ولكن الاتفاق العام أكد على أن الشاعر الفرنسي شارل بودلير صاحب ديوان أزهار الشر هو أول من صاغ مفهوما للحدث حين قال « ما أعنيه بالحدث هو العابر والهابط والعرضي، إنها نصف الفن الذي يكون نصفه الآخر هو الأبدى الثابت »، فنظرة بودلير لم تكن ضيقة محددة المجال بل كانت تشمل كل مجالات الحياة باستخلاص كل ما هو أزلي من أي شيء عابر، وثنائية الحاضر والأزل ثنائية لفهم الحدث عنده؛ فهو يؤكد على ضرورة الارتباط بروح العصر والتعبير عنه وأن « الفن يجب أن يكون أصيلا وحقيقيا في تعبيره عن الطابع المحلي، وليست أصالة الفن في محاكاة الفن اليوناني أو الروماني إنما في نقل المشاعر الحقيقية، الحزينة والعميقة، المفرحة والكئيبة » فالحدث تسعى إلى تأسيس ذاتها من خلال البحث عن كل ما هو جديد وغير متوقع وقطع الصلة بالماضي والتطلع نحو المستقبل.

لم يكن بودلير وحده من نادى بالقطيعة الزمنية مع الماضي في تحديد ماهية الحدث، بل وافقه في ذلك الروائي الفرنسي فلوير بقوله: « الحدث هي التعصب للحاضر ضد الماضي بمعنى أن الوعي الحداثي ليس تشبعا لسلطة ماضوية وحنينا إلى الأصل وحقبة ذهنية بل هو تمجيد للحاضر وافتتاح على الآتي »، ولربما تمثل هذه الجزئية -القطيعة مع الماضي- أهم سمات الحدث وذلك لرغبة الكثيرين في البحث عن كل ما هو جديد وغير مألوف.

ومن الذين خاضوا في بحر الحدث باحثين عن المعاني تحيل على المصطلح، نجد رولان بارت الذي شبهها بالانفجار العظيم الذي تصعب السيطرة عليه فيقول: « في الحدث تنفجر الطاقات الكامنة، وتحرر شهوات الإبداع في الثورة المعرفية مولدة في سرعة مذهلة وكثافة مدهشة أفكارا جديدة وأشكالا غير مألوفة وتكوينات غريبة وأقنعة عجيبة، فيقف بعض الناس منبهرا بها، ويقف بعضهم الآخر خائفا منها، وهذا الطوفان المعرفي يولد خصوبة لا مثيل لها، ولكنه يغرق أيضا » وعليه تكون الحدث بالنسبة لبارت قائمة على فكرة التغيير والتجاوز، ولكنها كذلك تشابه السلاح ذو الحدين.

لم يكن الغموض والتباين الذي أصاب مصطلح الحدث مقتصرًا فقط على العالم الغربي، بل وصل إلى البيئة العربية كذلك فلم يحدث اتفاق بين على تعريف موحد وشامل ودقيق للحدث، ولكن كان هناك إجماع على أن الحدث تتعارض مع كل ما هو تقليدي له صلة بالماضي والتراث والأصالة، وهي عبارة عن سعي نحو التغيير والتجديد. ومن الأعلام العرب الذين سعوا إلى إيجاد وتقديم معنى للحدث نجد أدونيس الذي عرفها بقوله: « الحدث رؤيا جديدة وهي جوهرية رؤيا تساؤل واحتجاج، تساؤل حول الممكن واحتجاج على السائد، فلحظة الحدث هي لحظة التوتر أي التناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع، وما تتطلبه حركته العميقة التغييرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها »

فالحداثة عند أدونيس هي محاولة جاهدة للخروج عن الثابت والنمطي لأجل خلق شيء جديد مغاير مختلف عما تعودنا عليه.

ترتبط الحداثة عند عبد السلام مسدي بالرؤية الزمنية التي تركز على إلغاء فكرة العصرية - أي ارتباط الحداثة بعصر دون آخر- فالحداثة عنده هي « رؤية واعية لإقامة علاقات دائمة التجدد بين الظرف الإنساني وبين الجوهرية الموروثة، وذلك من أجل استمرار العلاقة الإبداعية للإنسان مع لغته التي سيكون صانعا لها من خلال ما يضيفه إليها بديلا من المتغيرات المنقرضة، كما أن اللغة صانعة له من خلال هيمنتها عليه بواسطة الثوابت الجوهرية » فالحداثة بالنسبة للمسدي تعمل على صقل الموروث لأجل تعزيز الجوهرية.

ويرى كمال أبو ديب بأن الحداثة « انقطاع معرفي ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث، في كتب ابن خلدون الأربعة أو في اللغة المؤسساتية والفكر الديني، كون اللغة مركز الوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، كون الفن محاكاة للعالم الخارجي، والحداثة انقطاع لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود، وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني، وكون مصدر المعرفة اليقينية، إذا كان ثمة معرفة يقينية وكون الفن خلقا لواقع جديد ». وبالنسبة لغالي شكري فإن الحداثة كانت تمثل مواكبة الحضارة في صورها المتعددة إذ يقول: « الحداثة عند شعرائنا الجدد مفهوم حضاري، وهو تصور جديد للكون والإنسان والمجتمع، والتصور الحديث وليد ثورة العالم الحديث في كافة مستوياتها الاجتماعية والتكنولوجية والفنية ».

ومجمل القول أن مفهوم الحداثة قد تنوع واختلف باختلاف مشارب النقاد الذين تحدثوا عنه، ولكن الثابت في كل ما سبق يشير إلى أن الحداثة تمثل توجهها فلسفيا وفكريا مبنيا على العقل يهدف إلى التغيير في أي مجال.

2- الحداثة عند الغرب:

كما قلنا سابقا إن الحداثة عند الغرب كانت إرهابا صاعقا الأولى مع الشاعر الفرنسي بودلير، وقد كان لظهورها عوامل وأسباب لعل أهمها كثرة المذاهب والتيارات الفكرية والاتجاهات الفكرية التي كانت البلاد الغربية محضنا لها، ثم دخول هذه الأخيرة في مرحلة سميت بعصر النهضة أو العصر الجديد عصر الانفجار الفكري « فالحداثة في الغرب لم تكن طفرة، ولم تكن قفزة في الهواء، ولم تكن مولودا لقيطا ... وإنما كانت تطورا طبيعيا ومنطقيا لسيرورة الفكر الغربي، والفلسفة الغربية، والقيم الغربية، والدارس للفلسفة الغربية سيكتشف بسهولة مدى ارتباط المدارس السياسية والاقتصادية والفنية والأدبية والنقدية الغربية بتلك الفلسفة، وسيكتشف كيف أن مصطلحات تلك الفلسفة قد رحلت، لتستخدم في الخطاب النقدي والأدبي والاقتصادي »، وعليه تكون الحداثة الغربية كما قلنا نتاجا لعدد من المذاهب والفلسفات المتناقضة من جهة، ومن جهة أخرى نتاج لتمرد صارخ عن النظام الإقطاعي.

إننا إذا أردنا تحديدا زمنيا ثابتا للفترة ظهور المصطلح، سنجد أنفسنا أمام آراء مختلفة متعددة ولكننا سنحاول الأخذ بالرأي الأقرب إلى المنطقية، والذي يقول بأن المهاد الأول لفكرة الحداثة كان مع بودلير الفرنسي عام 1830م بباريس، فالكثير من النقاد ذهبوا إلى القول بأن فترة الحداثة انطلقت من « رحم الثورة الفرنسية التي ركزت بالرغم من فترتها اليعقوبية الدموية على سيادة العقل والتعقل والعقلانية، وهي مقولات انتشرت في عصر الأنوار الأوروبي » كان لها أثر كبير في تخليص أوروبا من ظلامها، ودخولها لعصر جديد سمي بعصر الحداثة.

لم تكن مسيرة الحداثة الغربية سهلة ذلك أن مرت بثلاث أزمات كان لها وقعها في تحديد مسارها، فكانت « الأزمة الأولى قد برزت في أواخر القرن الثامن عشر مع الثورة الفرنسية التي جسدت المثل الحديثة في مجال السياسة، أما الأزمة الثانية فإنها ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر حيث تم الإعلان عن بداية انهيار مثل التقدم والعقلانية والليبرالية، في حين الأزمة الثالثة تفجرت في أواخر الستينيات من هذا القرن وما زالت لم تنته علاماتها وتعبيراتها بعد »، فالحداثة نشأت وامتدت في الأقطار الأوروبية لتخرج عنها بعد ذلك إلى الولايات المتحدة والبلاد العربية.

3- الحداثة عند العرب:

إن البحث عن جذور الحداثة في البيئة العربية يجعلنا نغوص في عمق المنتج الأدبي العربي القديم، إذ تبين ملامح الحداثة من خلال شعراء العصر العباسي الذين حملوا لواء التجديد والتمرد عبر شق عصا الطاعة عن الموروث الشعري القديم، وكان على رأسهم **بشار بن برد**، وأبو نواس الذي وقف أمام الطلل وعيناه تفيضان ازدياء لهذا الذي سيجه التقليد بقديسية عبر القرون، ونفسه ممتلئة بروح البيئة الجديدة. وكذلك فعل **أبو تمام** فرفض القديم وسعى نحو ما هو جديد على مستوى اللغة الشعرية فاتخذت الحداثة عنده « بعدا آخر هو ما يمكن أن نسميه بعد الخلق لا على مثال فهو لم يهدف إلى المطابقة بين الحياة والشعر بل هدف إلى خلق عالم آخر يتجاوز العالم الواقعي ». بعد ذلك امتدت الحداثة في العصر الحديث إلى طه حسين الذي ذهب إلى أن سبل التفوق والتغيير لا تكون إلا عبر السير على النهج الذي رسمه الغرب للوصول إلى التطور والاستقلال العقلي والنفسي الذي « لا يكون إلا بالاستقلال العلمي والأدبي والفني »، ثم امتدت الحداثة لتصيب كلا من جماعة الديوان، وأبولو والمهجر.

إن تلقي الحداثة عند العرب كان من منطق الانبهار بما توصلت إليه الحضارة الغربية بفعل الحداثة؛ وهو ما ذهب إليه **طه حسين** عندما قال بضرورة التعلم كما تعلم الأوروبي لأجل الوصول إلى حياة يراها مثالية في كل جوانبها، ويؤكد **أنطوان مقدسي** غربية الحداثة فيقول : « إن الحداثة ليست ظاهرة عربية بالأصل، فهي أتننا ككافة التيارات الفكرية والإيديولوجية والأدبية والفنية وغيرها من العالم المصنع، ثم تأصلت تدريجيا وأنتجت على الخصوص في مجال الأدب مؤلفات عربية خالصة أو تكاد تكون خالصة، أي لها الكثير من الأصالة ».

يعد أدونيس المنظر الأول وأبرز من دعى إلى الحداثة في العالم العربي، ويرى بأنها « الصراع بين النظام القائم على السلفية، والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام وقد تأسس هذا الصراع في أثناء العهدين الأموي والعباسي، حيث نرى تيارين للحداثة:

- الأول سياسي فكري، يتمثل في جهة في الحركات الثورية ضد النظام القائم، بدءا من الخوارج وانتهاء بثورة الزنج مروراً بالقرامطة والحركات الثورية المتطرفة، ويتمثل من جهة ثانية في الاعتزال والعقلانية والإحادية في الصوفية على الأخص (...)

- أما التيار الثاني ففني، وهو يهدف إلى الارتباط بالحياة اليومية كما عند أبي نواس، وإلى الخلق لا على مثال خارج التقليد وكل موروث عند أبي تمام.

ويلخص أدونيس حديثه عن الحداثة من جانب النقد والتنظير في ست نقاط جاءت على النحو الآتي:

- أولا: ليست الحداثة في ذاتها قيمة إيجابية، فقد تكون الحداثة انحطاطا ورداءة.
- ثانيا: الحداثة مجرد سمة.
- ثالثا: مشكلة الحداثة كما بحثتها أنا شخصا، عدت إلى تاريخيتها في النقد العربي القديم واستفدت طبعاً من تاريخيتها في النقد العربي.
- رابعا: تتركز أهمية الحداثة في كونها حساسية حادة بالحاضر وانقطاع عن التقليدي.
- خامسا: الحداثة علاقات مغايرة بين المفردة والمفردة، على مستوى اللغة، بين اللغة والعالم، وبين الشاعر والعالم.
- سادسا: إذا قومنا النتائج الشعري العربي الراهن استنادا إلى ما تقدم، فإن هذا الشعر لا يزال بعيدا عن الدخول في الحداثة، خصوصا أن الحداثة انفتاح على مجهول ما، يحيل دائما من مجهول، إلى مجهول آخر لا ينتهي، والشعر العربي المسمى حديثا اليوم هو في معظمه لا يحيل إلا إلى المعلوم، وبهذا المعنى لا يزال بعيدا عن الحداثة.

بعض المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- 1- نجوى علي غريب: الحداثة بين دعايتها وخصومها.
- 2- محمد الشيكري: هايدغر وسؤال الحداثة.
- 3- عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر.
- 4- زعربان علي رضا النحوي: تقويم نظرية الحداثة.
- 5- نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة.
- 6- أدونيس: الثابت والمتحول (بحث في الإلتباس والإبداع عند العرب) صدمة الحداثة.